الحياة الطيّبة
السنة ٢٠
العدد ٣٤
صيف ٢٠١٦ م
ملف العدد

فقه العلاقة بين الأنا والآخر في الرؤية القرآنيّة

الشيخ الدكتور محمد علي ميرزائي[1]

ملخّص المقالة:

تُعدّ مقولة «الأنا والآخر» أو «الذات وغيرها» من المقولات الهامّة التي اعتنى بها القرآن الكريم؛ لأنّ الأساس التربويّ القرآنيّ مبنيّ على النفس (نوع من الأنا أو الذات)، ومن ثمّ ينتشر في الآخرين خيرًا أو شرًّا. والنفس في المفهوم القرآنيّ -أيضًا- تتجاوز الحدود الشخصيّة أو حدود الأنا -إذا صحّ التعبير- ولكنّنا نستطيع أن نقوم بإعادة تحديد مفهوم الأنا في ضوء القرآن، لنوسّع الإطارَ الدّلالي له في ظلّ الآيات القرآنيّة؛ كآية المباهلة، وآية الأخوّة بين المؤمنين، والآيات التي تتحدّث عن الولاء والولاية والموالاة والتولّي بين المؤمنين والمسلمين. ويستحسن دراسة هذه الآيات لأجل تحديد منطقة مشتركة للأنا مع الآخر والتأكيد على أنّ الأنا قرآنيًّا لا تُتخيّل إلا بشراكة مع الآخر، وأنّ الآخر -أيضًا- يستحيل تصوّره وبناؤه بدون الأنا.

وللأنا أو النفس أهمّيّة بالغة في القرآن؛ بوصفها كريمة مكرّمة عند الله، ولكونها تشكّل مرتكزًا وقاعدةً ومنطلقًا لحركة الإنسان وتكامله، وجميع النتائج المترتّبة على هذه الحركة لها اتّصال بهذا المفهوم، وقد حثّ القرآن على حفظها وحمايتها؛ جسدًا وعقلًا ونفسًا، غير أنّ التضحية الواعية بالنفس -أي بالشهوات والجسد وما شابه ممّا يتعلّق بالنفس- أمر هامّ وممدوح في الإسلام؛ في حال كان وفقًا لأصول معيّنة، وعلى

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، وعضو الهيئة العلمية في جامعة المصطفى ﷺ العالمية في قم المقدّسة، ورئيس مركز المصطفى ﷺ للفكر الاستراتيجيّ، من إيران.

أسس شرعيّة مكتملة الشروط والأجزاء. وأمّا الأنا الثقافيّة والفكريّة أو الأنا الهويّة والشخصيّة، فلا يمكن التفريط بها؛ بل ينبغي أن تبقى بمنأى عن التهديدات، ويجب صونها من كلّ عنصر مهاجم من الخارج أو الداخل.

إنّ التمييز بين الذات الشخصيّة وذات الانتماء والهويّة أمر فاصل وهامّ في التقويم المعياريّ للنقاش الفكريّ في هذا الموضوع.

مقدّمة:

تكاد إشكاليّة النفسيّ والغيريّ ترتبط بجميع قضايا الدين والهويّة والمجتمع في كافّة أشكالها التفاعليّة المجتمعيّة؛ حتى فرضت نفسها في جميع العلاقات الحضاريّة والثقافيّة على المستوى العالميّ؛ ما يدفعنا إلى مزيد من التفكير والتأمّل؛ بحثًا عن التحليل الموضوعيّ والحلول الناجعة للمآزق الحضاريّة والإنسانيّة المعاصرة.

إنّ القيام برصد كلّيّ عامّ لميادين الصراع المعاصر في العالم بين مختلف القوى المؤثّرة في المشهد الفكريّ والثقافيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ والسياسيّ والعسكريّ في كلّ منطقة وظرف جغرافيّ وحضاريّ، يكشف عن وجود صلة عميقة جدًّا بينها وبين إشكاليّة العلاقة بين الأنا والآخر؛ مفهومًا وأسلوبَ حياةٍ ونظامَ تواصلٍ وتعاملٍ على جميع الصّعد والسّاحات، على أنّ التعبير عن هذه الثنائيّة يظهر في عدد كبير جدًّا من المصطلحات والمفردات؛ حيث تدور حول فهمنا للأنا والآخر وإشكاليّة العلاقة والصلّة بينهما؛ من قبيل: العولمة والخصوصيّة، الذاتيّة والغيريّة، الوطنيّة (القطريّة) والإقليميّة والعالميّة، الإسلام (الأنا) والغرب (الآخر)، التراث (الأنا) والحداثة (الآخر)، حوار الأديان (حوار بين ديني والأديان الأخرى) وحوار المذاهب (حوار بين مذهبي والمذاهب الأخرى) وحوار الحضارات (إشكاليّة علاقة حضارتي بغيرها

من الحضارات)، الفردانيّة والاجتماعيّة، الحرّيّة (الأنا) والأمن والنظام (الآخر)، والأقلّيّة (الأنا) والأكثريّة (الآخر)، وغيرها من العناوين المتكثّرة جدًّا في الحوار الفكريّ حينًا، وفي الصِدام العدوانيّ والعنفيّ والنزاع الميدانيّ حينًا آخر في الواقع المعاصر.

وعليه؛ فإنّ جميع ألوان التفاعل الفكريّ والمادّيّ بين نماذج الحياة وأساليبها وأنماط الحوار والنزاع بكلّ أنساقهما ونوعيّة التعامل بين المدارس والتيّارات القائمة في العالم المعاصر؛ هي ناتجة عن تفسير العلاقة بين النفس والآخر، أو بين الذاتيّة والغيريّة -إذا صحّ التعبير واشتقاق اللفظ لغةً-.

لذا؛ تشكّل ساحة التواصل بين الإنسان الشخص أو إنسان الهويّة والانتماء، وبين غيره الشخص أو غيره؛ انتماءً وفكرًا وحضارةً؛ ساحة اختبار جميع الأنظمة المعرفيّة؛ عقيدةً وقيمًا وفقهًا، وكذلك أرضيّة تجربة للأنظمة الاجتماعيّة التي تصاغ في ضوء المبادئ والأخلاق والحكم العمليّة والحقوق الفقهيّة.

إنّ كلّ مدرسة فكريّة، وديانة، ومذهب، وعقيدة، وفلسفة، وأيديولوجيا تفسّر النفس (الذات) والآخر المختلف في الهوية والانتماء بقطع النظر عن الإطار المختلف عليه، تفسيرًا معيّنًا ينبع عن أسس فكريّة ومبرّرات عقديّة أو أيديولوجيّة أو فلسفيّة محدّدة، وبالتالي تكون مُخرَجاتها -أيضًا- أنظمة علاقات معقّدة ومتشابكة بين نفسها والآخر المختلف أو المعارض أو المنافس أو المخاصم أو حتّى المعادي. وهذه الشبكة التواصلية بينهما هي الكفيلة بصياغة علاقتها الاجتماعيّة وأسلوب الحياة.

من هنا؛ تغدو التعدّديّة الدينيّة والمذهبيّة والسياسيّة هي السمة الأساس لعالمنا المعاصر. فلم يعد بالإمكان أن نمنع هذا التنوّع؛ حتى لو لم نعتبره بنّاءً، أو لم نوافق عليه. فالحرّيّة هي المنجز الأكبر للحضارة القائمة في العالم، والتسامح وقبول الآخر المختلف هو مكتسب هامّ

وحضاريّ بجميع المقاييس، فلا يُعقل أن يعمل الإنسان في أيّ مجتمع كان للقضاء على المختلفين أو حتّى المخالفين.

تكمن الإشكاليّة الواقعة في عالمنا المعاصر في التحيّر والتخبّط بين تمجيد التعدّديّة والحرّيّة والدعوة إليها من جهة، والسعي السرّي أو المعلن إلى احتكار التقنين والتشريع والتنفيذ والإعلام من جهةٍ أخرى. وهذه الإشكالية هي أساس تناقضات العالم المعاصر في تعامله مع قضيّة الوحدة والتنوّع أو قضيّة الأنا والآخر أو الذاتيّة والغيريّة.

هذا، وبينما نشهد في العالم الغربيّ مواجهات حقيقيّة بين المواطنين المسلمين والعرب وبين الغربيّين الأصليّين أو شبه الأصليّين؛ الذين هم بدورهم يُعتبرون (الآخرين) في ما لو قسناهم مع (الأنا) الساكنة والأصليّة العريقة في هذه القارّة، نشهد -كذلك- صداماتٍ عنيفة وصراعات وجوديّة خطيرة في مجال العلاقات الدوليّة بين الدول والشعوب والأديان والمذاهب، حلّت محلّ الأحلام السابقة في الحوار والتسامح والتعايش بين المكوّنات الفكريّة والسياسيّة والمذهبيّة في العالم.

والواقع أنّ فكرة التعارف بين الحضارات هي فكرة قرآنيّة كونيّة أصيلة، وكذلك القيم الأخلاقيّة القرآنيّة تنطلق جميعها باتّجاه الإصلاح في منطق العلاقة بين الأطراف المتناحرة والمتباينة في العالم. وفي ضوء ذلك؛ تكمن أهمّيّة علاقة الأنا بالآخر في الرؤى القرآنيّة المؤثّرة في التواصل بين الناس؛ على الرغم من التنوّع والتعدّديّة القائمة بين أفكارهم وأديانهم وقناعاتهم.

إنّ دراسة قضايا ترتبط بالأنا والآخر أو بالذات وغيرها، ستساعد من جهة، على فهم الخلل في الأنظمة الحقوقيّة، وكذلك في المخطّطات العالميّة في التعامل مع الأقلّيّات والمهاجرين والمستعمَرين. ومن جهة ثانية، فإنّ المسلمين الذين يعانون اليوم من مصيبة الحركة التكفيريّة الانتحاريّة سوف يكتشفون عبر هذه الدراسات الموضوعيّة أنّ منطق

العلاقة في هذه التوجّهات المتطرّفة بين النفس وغيرها مشوَّه منحرف لا أصالة له من الإسلام والقرآن الكريم، وسيعرف القرّاء أنّ أدبيّات القرآن الكريم في التعامل مع الناس في أطياف كثيرة؛ بعدًا وقربًا؛ هي أدبيّات تتناقض مع روح الحركات التكفيريّة ومنطق إرهابهم وجرائمهم.

ومن أهمّ الخلاصات من الدراسة القرآنيّة في هذا الموضوع؛ هو أنّنا سنكتشف أنّ جزءًا هامًّا من الخلل الحاصل في الواقع الإنسانيّ والإسلاميّ نابع من ضعف النفس وارتخاء الإرادة فيها وعدم فعّاليّة عملها؛ ما يدعو إلى إعادة النظر في تقديم العمل مع الآخر وتجاهل الأنا. هذه حقيقة قرآنيّة؛ مفادها أنّ الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الذات، ومن ثمّ ينتقل إلى الآخر، واستباق الآخرين في الخيرات وتحصين النفس هو أساس قرآنيّ يساهم في نشر الخير، أكثر من أن ننسى الذات ونركّز على تصحيح مسارات الآخرين وفقدان الإحساس بالمسؤوليّة تجاه الذات والشعور بها بقوّة تجاه الآخرين!

أولًا: الهويّة في القرآن الكريم.. منطلق دراسة إشكاليّة الأنا والآخر:

بات طرح الهوية والنقاش عليها من أهمّ المباحث العصريّة والقضايا الحيّة؛ بفعل التصارع العالميّ على القضايا الإنسانيّة والصراعات العنيفة بين الانتماءات الفكريّة والدينيّة أو الاجتماعيّة في العالم؛ ما أشعر أطرافًا من هؤلاء المتعاركين بأنّهم مستهدفون ومهدّدون من قبل الآخرين، ولكن ليس استهدافًا صلبًا بالدبابات والطائرات؛ وإنّما بالمحاولات الرامية إلى ضرب الهويّة ومفاهيمها وقيمها ومقاومتها. ومن هنا؛ أخذت الهوية بعدًا هامًّا جديدًا في النقاشات العالميّة.

ومن الهويّات التي أصبحت عرضة للهجمات من الآخر: الهوية الإسلاميّة؛ التي اُعتبرت حسب المنظور الغربيّ حالة تهديد ناعم، تُسبّبُ

استقبالاً وترحيبًا من قبل المواطنين الغربيّين المتورّطين في أزمة الهوية؛ حيث نظروا إليها باعتبارها بديلًا يُعدّ أنموذجًا مُغريًا لديهم يستحقّ التفكير والتأمّل والتلقّي. وعليه؛ فإنّ الذي يشهده العالم بين الهويّتين هو الشعور المتبادل بالتهديد؛ وهو ما أطلق شرارة حرب ناعمة بينهما على المستوى الكونيّ، بيد أنّ الطرف الغربيّ أقوى فيها؛ لأنّه استطاع أن يتحرّك بتناسق وتناظم وتناغم في الحركة الحضاريّة وفي جميع محاولاته المعرفيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والعسكريّة والمؤسّساتيّة باتّجاه صياغة الهوية. ولكنّ على الرغم من أنّ الهوية التي يرسمها القرآن الكريم للمسلمين تفوق كلّ ميّزات التصوّرات الغربيّة في الهوية، وعلى الرغم من أنّ التجربة التاريخيّة النبويّة وتجربة الخلافة الإسلاميّة تتمايز بسمات راقية في الخلق والعلم والحضارة؛ فإنّهم يعيشون في حياتهم مرحلة انحطاط حضاريّ وعجز عن صناعة الأنموذج الحضاريّ لهم في الحياة الواقعيّة، بعقل شتات، وتصوّرات بدويّة، وتمزّق في الأنا، ورفض الفكر الوحدويّ، ونبذ التحالف مع الذات، والإقبال على الآخر في كلّ شيء تقريبًا.

ولولا بعض الجيوب المقاومة في العالم الإسلاميّ؛ كالمقاومة الإسلاميّة ضدّ إسرائيل في لبنان وسوريا وفلسطين، والثورة الإسلاميّة الإيرانيّة وأنموذجها التنمويّ الحضاريّ الذي قدّمته في ما بعد من منطلق الدولة الدستوريّة التي تشكّلت في ضمنها، والتجارب الماليزيّة والإندونيسيّة والتركية التي اتّخذت في بعض معالمها الرؤية الحضاريّة الإسلاميّة؛ وإنْ بقيت علمانيّة إلى حدّ بعيد جدًّا. لولا ذلك لانتهى شيءٌ اسمه الإسلام الحضاريّ والهويّة الإسلاميّة، أو لبقيت في نطاق فرديّ خاصّ؛ كالهويّة البوذيّة أو الكونفوشيوسيّة!

لقد بات من الواضحات أنّ الدين يشمل الحياة بجميع مرافقها وأبعادها، فلا يخلو مجال في الدنيا وفي النفس إلا وللدين مباشرة في

معالجته بطريقة أو بأخرى، ولكنّ على الرغم من هذا الغطاء الدينيّ الواسع والشامل على جميع الأصعدة؛ إلا أنّ هناك رؤية توحيديّة تصطبغ هذه المساحة الحياتيّة الشاسعة بطابع محدّد يميّزه عن النماذج الأخرى في أسلوب الحياة.

وتتّضح هذه المواصفات العامّة والملامح الرئيسة الدينيّة للحياة التي تصوغ لنا الهويّة الدينيّة، والشمولية القرآنيّة في البيان، بالإضافة إلى التحقّق التأريخيّ الجزئيّ والنسبيّ له في عهود معيّنة؛ من خلال وصف القرآن في القرآن.

ولا شكّ في أنّ الهوية التي يصوغها القرآن أو تُبنى عليه؛ لهي هوية تتّسم بأوصاف كثيرة جدًّا، ولكنّ السمة الكبرى والأكثر أهمّيّة هي الاستقامة والعزّة والحياة؛ بوصفها عناصر أساسيّة تؤهّل الكتاب ليكون المصدر الأوّل للبشريّة لصياغة الأنظمة الاجتماعيّة والإطار الحضاريّ الشامل للحياة، وليصنع لهم هويّة لها التفوّق والهيمنة القيميّة والفعّالة. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2]، ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[3]، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[4]، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ

(1) سورة الإسراء، الآية 9.
(2) سورة الأنفال، الآية 24.
(3) سورة إبراهيم، الآية 1.
(4) سورة النحل، الآية 89.

وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1].

وهي صفات تحدّد العناصر المنجهيّة المعرفيّة للقرآن الكريم[2]، وليست مجرّد ذِكْر لفضائل منهاجيّة.

وعليه؛ فإنّ الهويّة الإسلاميّة الإنسانيّة العالميّة تتّخذ من هذا الكتاب المعالم الرئيسة والصبغة الكلّيّة في المبدأ والاتّجاه والغاية والمنهج والوسائل والبرامج. وهي خصائص كثيرة جدًّا تشمل المنهاجيّة والشمول والجامعيّة والمضامين الفكريّة والطرق المحقّقة والوسائل الملائمة لتحقيقها وما يتعلّق بالشبكة العلاقيّة الجامعة في صلة الإنسان بالنفس وبالآخر وبالطبيعة، وكذلك علاقته باللّه تعالى؛ لأنّ الهويّة تبرز وتتجلّى في التواصل مع الآخر ونمط العلاقة مع الذات والآخر قبل أيّ شيء آخر.

ليست الهوية ما يصفها الإنسان لنفسه؛ وإنّما هي ما يتحقّق في سلوك الإنسان مع ذاته ومع غيره في صورة التجلّيات الخارجيّة والأنظمة الاتّصاليّة الاجتماعيّة التي يتّخذها المرء لنفسه أو لانتمائه؛ فالهويّة هي الصورة القابلة للمشاهدة أو الإدراك من حركة الدين في الحياة، وفيها مزج بين ما هو إنسانيّ عقلانيّ في اختيار الصور المادّيّة وبين ما هو في النصوص الدينيّة من البنية المعرفيّة الوجوديّة المستقرّة والثابتة. ولذلك، فإنّ الهويّة الدينيّة مع استقرار مغزاها وثبات محتواها العميق؛ غير أنّها قد تختلف من بلد إسلاميّ إلى آخر، ومن مجتمع ثقافيّ إلى آخر، ومن حضارة إلى أخرى في صورها ومظاهرها.

أمّا الآخر الثقافيّ والفلسفيّ الغربيّ، فقد شكّل هويّته أو هويّة الأنا الأوروبيّة بناء على الرؤية العلمانيّة وعدم التعويل على الدين بوصفه منهجًا شاملًا للحياة؛ وإنّما قدّم رؤية وضعيّة دنيويّة عقليّة بوصفها إطارًا للهويّة المجتمعيّة والصبغة الحضاريّة له. وبالتالي؛ كان فيها كثيرٌ من

(1) سورة المائدة، الآية 15-16.

(2) انظر: العلواني، طه جابر: نحو منهجيّة معرفيّة قرآنيّة، ط1، بيروت ،دار الهادي، 1425 هـ .ق/2005م ص7-15.

روح الإقصاء والاستهتار والاحتقار بالآخر لتوهّمها أنّها هي الأنا العليا والفائقة، وأنّ ما أنتجه الغربيّ الأوروبيّ الأميركيّ هو نهاية التأريخ.

ولم يكتفِ الآخر الغربيّ بوصف المسلم والعربيّ والشرقيّ وغير الأوروبيّ عمومًا بـ «**الآخر**»؛ بل تعدّى ذلك ليرى نفسه الأنا المتحضّرة[1]، ويرى الآخر متوحّشًا متخلّفًا وإنسانًا من الدرجة الثانية والثالثة، وفكرة العالم الثالث فيها شيء من هذه العنصريّة؛ إذ لا نجد سعيًا جادًّا في فهم هذا الآخر في نطاق حضارته وسياق مدنيّته الخاصّة به[2]، على الرغم من أنّ الحقبة الاستعماريّة الغربيّة ضدّ البلاد المسلمة وغير المسلمة هي من التجارب الوحشيّة الهمجيّة البربريّة التي استهدفت الهويّة الغنيّة والإنسانيّة ولم تكن الهويّة الإسلاميّة تهديدًا؛ وإنّما بديلًا إنسانيًّا لملء الفراغ النفسيّ والخلل الاجتماعيّ والمأزق الحضاريّ الذي عاشه الإنسان في القرنين الماضيين.

وبالإضافة إلى زعماء العالم الإسلاميّ والقيادات العليا النهضويّة؛ كالسيد جمال الدين، ومالك بن نبي، والإمام الخميني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وخير الدين التونسيّ، وغيرهم كثير من الطبقة العليا من قادة الفكر والإصلاح في العالم الإسلاميّ؛ ثمّة مفكّرون كبار التفتوا إلى تعرّض الهويّة العربيّة والإسلاميّة للهجوم الشرس في فترة الاستعمار وبعدها، ولكنّ المشكلة تكمن في أنّ بعض المفكّرين المسلمين الحداثيّين اعتبروا الهويّة أمرًا تاريخيًّا يتمايز عن الثقافة بطول فترة تشكّله. والحقيقة أنّ للهويّة صلة بالثوابت التي قد لا تتغيّر وجوديًّا إلى يوم الساعة، ولم يكن قد طرأ على بنيتها من الأزل. هذا ما يميّز العناصر المكوّنة للهويّة من المنظار القرآنيّ عن غيرها الوضعيّة الإنسانيّة التأريخيّة؛ لأنّ الهويّة التي ترتكز إلى التأريخ لن تنسجم مع الدين الذي له منطقة ثابتة غير خاضعة لشهوات الإنسان أو أهوائه أو عقله؛ وإنّما لنواميس الله في الوجود وثوابته في السنن.

(1) انظر: السيّد، عمر؛ وآخرون: الأنا والآخر من منظور قرآنيّ، تحرير: منى أبو فاضل؛ نادية محمود مصطفى، ط1، دمشق، دار الفكر، 1429 هـ . ق/ 2008م، ص30.

(2) انظر: سبيلا، محمد: مخاضات الحداثة، ط1، بيروت، دار الهادي، 2007م، ص271.

ثمّ إنّ الالتفات إلى بعض ما يقوله الفيلسوف المغربيّ محمد سبيلا في مخاضاته الحداثيّة يكشف عن إشكاليّة عميقة جدًّا في فهم المسلمين لمقولة الهويّة، حيث يقول: «أما الهويّة الثقافيّة فتعني مجموع السمات الثقافيّة والمهيمنة خلال فترة تأريخيّة طويلة الأمد، والتي تميّز جماعة بشريّة ما عن غيرها من الجماعات، ويتعيّن التمييز بين التصوّر الميتافيزيقيّ الذي يجعل الماهيّة سابقة على الوجود والتصوّر العلمي أو التأريخي الذي يعتبر الماهيّة لاحقة للوجود. فالهويّة في التصوّر التأريخيّ ليست معطىً ماهويًّا ثابتًا وقبليًّا يمكن أن يتجلّى بمنزلة روح في الأشكال الحضاريّة والتعبيريّة والسلوكيّة في مجتمعٍ ما؛ بل هي معطىً تأريخيّ متحرّك؛ لأنّها نتيجة أوضاع وشروط اجتماعيّة وتأريخيّة، وبالتالي، فهي دومًا في حالة تشكّل محطّ تأويل، ولا تكتسب طابعًا سكونيًّا إلا في المجتمعات الآسنة أو في المجتمعات البدائيّة، وهي مجتمعات لم تعد الديناميّة التأريخيّة المعاصرة تسمح بوجودها. ليس هناك أمّة عقلانيّة في جوهرها أو صوفيّة أو روحانيّة أو مادّيّة في جوهرها. وإذا كان ثمّة ماهيّات -أي صفات وخصائص تتّسم بقدر من الثبات والدوام- فهي ليست إلا ماهيّات تأريخيّة»[1].

إنّ الفراغ المعرفيّ المهول في هذا التفسير للهويّة كبير جدًّا؛ لأنّه تفسير يعاني من فقدان التواصل مع البنية العقديّة؛ وهي قراءة تاريخيّة لهويّة المسلمين، وليست للهويّة من المنظور الإسلاميّ. وإنكار وجود الطبقة الثابتة من المعرفة والقواعد في هذه القراءة للهويّة هو أساس المشكلة؛ لأنّ الإنسان الفاقد للرؤية الوجوديّة فقط يمكن أن يقدّم تفسيرًا تأريخيًّا محضًا للهويّة والمقولات الأساسيّة في الحياة.

إنّ المنهاج التأريخانيّ للفكر الإسلاميّ والقراءة الزمنيّة له تعيق فهم العناصر الثابة للهويّة الإسلاميّة في عهد المصطفى ﷺ، على الرغم

(1) سبيلا، مخاضات الحداثة، م.س، ص 273.

من أنّ البعد الأخلاقيّ والقيميّ والبعد العقديّ والنظريّ القرآنيّ للإنسان والله والوجود والسنن الاجتماعية الثابتة لا تخضع للتحوّل ولا للتغيير.

ومع ذلك نرى أنّ القرآن الكريم يدعونا إلى عدم اعتبار أمّة من الأمم هي المنطلق التاريخيّ التراكميّ لتشكّل الهويّة؛ وإنّما المفهوم من الآية هي أنّ الأسس الوجوديّة الإلهيّة الثابتة أو السنن التأريخيّة والاجتماعيّة والوجوديّة هي التي ينبغي للإنسان أن يبني عليها مهما مرّ عليها الزمن أو تجاوزها، أو تجاهلتها الأمم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وعلى نقيضٍ من قراءة الأستاذ محمد سبيلا، نرى أنّ الراحل مالك بن نبي رحمه الله يرتقي في تحليله لعناصر الاضمحلال والسقوط للحضارة الإسلاميّة إلى درجة يرى فيها أنّ هيبتها قد سقطت وأنّها انحدرت في حركتها وتحوّلت من حضارة ذات اتّجاه روحيّ وسماويّ إلهيّ إلى وجهة أرضيّة ماديّة بعد حرب صفّين؛ أي إنّه يرى أنّ ثمّة عناصر إسلاميّة للهويّة هي أقرب إلى السنن لو تخلّفنا عنها وتجاهلناها فستسقط الهويّة الإسلاميّة، وبدون العودة إليها -مهما طال الزمن- لن نرى نور الهويّة القرآنيّة الإسلاميّة المحمّدية حقًّا؛ وذلك لأنّ مالكًا عليه الرحمة يرى القرآن علمًا تجاوز سقف وعي الجاهليّة، ونظامًا فلسفيًّا يحمل التفاسير الكونيّة الثابتة: «إنَّ القرآن بوصفه نظامًا فلسفيًا كان علمًا يتجاوز أفق النفسيّة الجاهليّة بشكل واضح. وقد نتجتْ عن ذلك قطيعةٌ بين أولئك الذين اعتنقوا الفكر القرآنيَّ، وبين مَنْ بقي متمسّكًا بالعُرْف والتصوّرات الاجتماعيّة والظروف المعيشيّة التي مَنَعَها القرآن. إنّ هذه الظاهرة هي عمق التاريخ الإسلاميّ منذ ثلاثةَ عشرَ قرنًا، إذْ طالما اختفَتْ وراء ظواهر التاريخ، لكنّها سرعان ما تطفو إلى السطح بمجرّد نشوب خلافات بين المسلمين، وذلك بمناسبة كلّ الأزمات

(1) سورة البقرة، الآية 134.

التي مرّت على المجتمع الإسلاميّ»[1].

وفي فقرة أخرى يتحدّث عن عناصر تغيير وجهة الأمّة وحضارتها وهويّتها في القرن الأوّل: «إنّ ذلك الموعد التاريخيّ الذي يبدو أنّه لم يَحْظَ بالاهتمام الكافي، على الأقلّ بوصفه محطّة هامّة في تاريخ الأفكار الانفصاليّة في العالم الإسلاميّ، هو مع ذلك تاريخ في أعلى درجة من الأهمّيّة؛ لأنّه يمثّل المنعرجَ التاريخيَّ في الإسلام، ويكاد أن يكون بمنزلة نهاية لملحمته الروحيّة، وبشكلٍ ما بدايةً لانحطاطه أو على الأقلّ إرهاصًا أولًا لذلك... فلمْ تعُدِ الحضارة تتطوّر في عمق النفس البشريّة؛ بل على سطح الأرض التي ستُسلِّط على الحضارة جاذبيّتها من أصقاع الصين البعيدة إلى المحيط الأطلسيّ. فبعد معركة صفّين بدأ عصر الفتوح العلميّة بظهور أسماء اخْتَرَقَتْ شهرتُها الآفاقَ؛ مثل: الكنديّ، الفارابي، ابن سينا، أبي الوفاء، وابن رشد... وصولًا إلى ابن خلدون الذي سطع نورُ عبقريّته المُكتئبة ليضيءَ أواخرَ الحضارةِ الإسلاميّة... ولهذا؛ فإنّ المسلم الذي كان مُحرِّكًا لحضارة نيِّرة، راح ينغمس في مرحلة المناوشات المتنوّعة وحروبِ الطوائف والغزوات، إلى أنْ وجد نفسه في الحالة التي نراه عليها اليوم...»[2].

هذا القول -كما غيره من كثير من نصوص مالك بن نبي- يثبت أنّ ثمّة فرقًا جوهريًّا بين قراءة محمد سبيلا والمثقّفين الجدد الحداثيّين، وبين مالك بن نبي في فهم الهويّة ومحدّداتها والثابت والمتغيّر فيها والإشكاليّات الحقيقيّة العميقة في علاقة الهويّة الإسلاميّة مع غيرها عبر التأريخ.

ولمّا كان الغرب ينظر إلى الهويّة الإسلاميّة لهذا الآخر على أنّها هويّة تستهدف هويّته؛ أي هي هويّة مضادّة ومعاكسة تتنافى مع حضارته في

(1) ابن نبي، مالك: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط5، دمشق، دار الفكر، 1406 هـ. ق/1986م، ص 124.

(2) ابن نبي، مالك: شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين؛ عمر كامل مسقاوي، لا. ط، دمشق، دار الفكر، 1406هـ. ق/1986م، ص 53.

قيمها وأشكال الحياة فيها ومفاهيمها البنيويّة والوجوديّة، ولاسيّما بعد أن اكتشف المستشرقون أنّ بنية الطاقات في الهويّة الإسلاميّة قويّة جدًّا وفيها رؤية طموحة على المستوى العالميّ والكونيّ، ولها القدرة على أن تشكّل تهديدًا لعمق الهويّة المادّيّة الغربيّة وأن تُقدّم البديل الحضاريّ للهويّة الإنسانيّة العالميّة[1]. ولمّا كان ذلك كلّه وضع الغربيّ في مخياله أن يصادم الهويّة الإسلاميّة ويصارعها، فوقع كلّ ما نراه على المسلمين منذ قرنين أو أكثر.

وعليه، إنّ الصراع الإسلاميّ -الغربيّ- مع بعض التسامح في التعبير طبعًا- هو صراع ناتج عن فهم الطرفين للأنا والآخر ونمط التواصل بينهما على المستوى العلميّ والعمليّ والحضاريّ بكلّ سبله ووسائله. من هنا؛ ينبغي لنا أن ندرس القضايا المعاصرة بصورة انضماميّة موحّدة، وفي مستوى حضاريّ عالميّ، وليس بطريقة ذرّيّة وجزئيّة تضيّع علينا الطريق وتضلّل الفكر وتوقعنا في السذاجة التحليليّة في التعامل مع الغرب.

لا شكّ في أنّ الهويّة الغربيّة في مشاريعها العلميّة والاجتماعيّة تتمايز وتتفارز عن الهويّة الإسلاميّة بوضوح تامّ، ويكمن السبب الرئيس في التخالط المفهوميّ والفلسفيّ بين روّاد الفكر والنهضة في العالم الإسلاميّ حول الحلول الفلسفيّة أو مواقفهم تجاه الحداثة والديمقراطية على سبيل المثال؛ في عدم الوقوف الجيّد على هويّة الأنا الإسلاميّة قبل كلّ شيء.

ومن المحدّدات الرئيسة للهويّة في منظور القرآن الكريم:

- يبيّن القرآن الكريم للإنسان السنن الكونيّة الثابتة.
- الكرامة الإنسانيّة وإعزاز نوع الإنسان هما من ثوابت الهويّة التي يصوغها القرآن للإنسان النوع المفضّل على غيره؛ مع قطع النظر عن التوجّهات والقناعات التي يتبنّاها الإنسان المحدّد.

(1) انظر: العلواني، نحو منهجيّة قرآنيّة معرفيّة، م.س، ص25-28.

- الطبقة العليا في البعد العقديّ والنظريّ للهويّة الإسلاميّة الإنسانيّة في القرآن هي الرؤية التوحيديّة التي تهدي جميع المجالات وتقود العقل والفكر والعمل فردًا واجتماعًا.
- المستوى الأعلى في البعد السلوكيّ للإنسان هو الجهة القيميّة والأخلاقيّة المسلكيّة أو القلبيّة الجوانحيّة، ومن ثمّ الجهة الفقهيّة العمليّة الجوارحيّة.
- الإنسان مدنيّ بالطبع واجتماعيّ بالفطرة، فلا معنى لتحقّق الدين إلا ضمن الحراك المجتمعيّ والتفاعل الجماعيّ له.
- النفس هي المرتكز الأساس والمنطلق للحركة الإنسانيّة في المجتمع، فتتطبّع الحركة الاجتماعيّة بما عليه النفس الإنسانيّة من صفات ورؤى. وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد بضرورة بناء الحركة الاجتماعيّة على طُهر النفس ونظافتها وتزكيتها وتنقيح القصد والنيّة والإخلاص التوحيديّ فيها.
- الهويّة الإسلاميّة هي بما تتّصف به من سمات إنسانيّة وعقلانيّة عابرة للجغرافيا والانتماءات، وهي حقيقة عالميّة كونيّة لا تخصّ ثقافة معيّنة أو منطقة خاصّة أو أصحاب عقيدة محدّدة؛ وإنّما هي قابلة للانطلاق والتفاعل مع البشريّة جمعاء؛ أينما أقاموا واستقرّوا في الأرض.
- إطار الهويّة الإسلاميّة ليس الشخص والفرد؛ وإنّما علاقة شراكة وحقيقة متحرّكة ديناميكيّة وأمر مشاعيّ بين المجتمع. ولذا فإنّ مفاهيم: الأخوّة، المؤاخاة الإسلاميّة[1] بين المؤمنين، الموالاة بين جميع المسلمين، وغيرها من المفاهيم الهامّة المحوريّة المفتاحيّة -كالبراءة والولاء أو التولي والتبرّي- جميعها يندرج ضمن إعادة تكوين الهويّة وتجديد محدّداتها من المنظور القرآنيّ.

(1) انظر: ابن نبي، وجهة العالم الإسلامي، م.س، ص52.
يقدّم المفكّر الجزائريّ -هنا- قراءة هامّة عن الفارق بين مبدأ الأخوة التي لها معنى مجرّد، ومعنى المؤاخاة التي لها حركيّة سيّالة مجتمعيّة.

- ما يرتكبه الإنسان من سوء أو ظلم فهو ظلم في حقّ الذات والنفس أولًا، ولا معنى للظلم خارج إطار الظلم في حقّ النفس، وكلّ ظلم يرتكبه الإنسان في حقّ أيّ شيء أو شخص فهو ظلم في حقّ الأنا المسلمة. والأمر نفسه في ما يخصّ الخير؛ إذ إنّ ما يقوم به الإنسان من خير وإحسان في حقّ أيّ شخص سيرجع في النهاية إلى الأنا والذات؛ فالشرّ والخير كلاهما يرجعان إلى النفس الفاعلة هنا وفي الآخرة. وهذه من أهمّ القواعد البنيويّة في بناء الهويّة الإنسانيّة والحضاريّة من منظور القرآن.

ثانيًا: مأساة الآخر في بلاد الإنسانيّة والتسامح وحقوق الإنسان:

إنّ التدقيق في مشروع العولمة في جميع تجلّياتها الأميركية (الأمركة) أو الأوروبيّة (الأوربة)، لا يبقي لنا مجالًا للشكّ في أنّ القصد منها هو فرض الهويّة الأميركيّة والغربيّة على المناطق الأخرى للعالم؛ وبالتحديد على العالم العربيّ والإسلاميّ.

في هذا المشروع يتمّ استثمار العلم والصناعة والتكنولوجيا والأيديولوجيا والمناهجيّات والفنّ والمؤسّسات الخاصّة؛ لأجل إخضاع الآخر أو إقناعه بأنّ الحلول الغربيّة في الحضارة حاسمة ونهائيّة وهي أفضل ما يمكن أن يبلغه الإنسان في بحثه عن الخلاص في آخر الزمان.

وعليه؛ فإنّ مشاريع العولمة الغربيّة بجميع أذرعها لها أسس من الفلسفة والرؤى العامّة والمفاهيم الناعمة الثقافيّة والمجتمعيّة، وفي منظومة عملها وميدان حراكها منهجيّة خاصّة وتوجّه محدّد في قيمة الآخر؛ حيث تعتبر الأنا الأميركيّة والغربيّة هي العليا وهي المركز والقطب والمحور، وأمّا غيرهم فهم الأغيار والآخرون؛ يجب عليهم أن يطوفوا حول المركز ويجلسوا على موائده ويستهلكوا من فكره ونتاجاته، وأن يسعوا إلى التماهي معه والبلوغ إلى مراميه.

هذا، غير أنّ ضعف المبادئ الفكريّة والأسس الفلسفيّة أو التناقضات البنيويّة في مشاريع العولمة الغربية سبّبت هشاشة بعض الصيغ الفكريّة أو السياسيّة لتجاوز هذه الغيريّة الواضحة. ولعلّ بيان حقوق الإنسان، والديمقراطية والمواطنة في الفكر المعاصر كانا من أهمّ المحاولات التي جرت لأجل إبداع أدبيّات سلميّة تضع قاعدة مشتركة بين بعض مستويات الأنا والآخر. وعلى الرغم من أنّ آفات كثيرة جدًّا أعاقت تحقيق الأهداف في هذه المشاريع، فإنّ من اللازم التأكيد على أنّ مستوى معقولًا منطقيًّا للعدالة والمساواة لم يتحقّق لمصاديق الأنا والآخر المتنوّعة جدًّا في الوطن الواحد، وبقي كلّ منهما في موقعه الصلب واحتمالات الصدام والمواجهة القائمة؛ لأنّ ما يقدّمه مبدأ المواطنة والفلسفات الكامنة وراءها للإنسان هو أقلّ بكثير ممّا يهيمن على عقل الأنا، فيبقى احتمال الاشتباك مع الآخر أمرًا مستمرًّا محتملًا في كلّ لحظة. والعلاج الحقيقيّ لم ينتج عن تلك الأفكار الأساسيّة للفلسفات الوضعيّة العلمانيّة المادّيّة.

ولو نظرنا إلى ذروة الديمقراطيّة والمواطنة والحرّيّة وأرقى نماذجها وأسمى تجاربها؛ أي فرنسا أو أميركا، ومن ثمّ لو تأمّلنا في إشكاليّة العلاقة في تلك البلدان، وفي عمق تحقّقاتها الخارجيّة المعمول بها بين ثنائيّة الإسلام والغرب، والإسلام والمسيحيّة، والمسلم وغير المسلم، والشرقيّ والغربيّ، والمواطن الأصليّ وابن الجالية المهاجر، والأسود والأبيض، والعلمانيّ والدينيّ، والتراثيّ والحداثيّ، والاشتراكيّ والليبراليّ، والمحجّبة والسافرة، وغيرها من مجالات التواصل وحقول التصادم... لو نظرنا في ذلك كلّه لاطمئنّت قلوبنا وتيقّنت عقولنا أنّ معالجة حقيقيّة لمشكلة الأنا والآخر لتحقيق القدر المعقول من المساواة والعدالة غير متوافرة.

إنّ من الضروريّ -هنا- لفت الانتباه إلى تجنّب مقارنة أوضاع تلك البلدان المدّعية لعلاج إشكاليّة التعدّدية وحقوق الإنسان وقيم العلمانيّة كما يسمّونها هم، مع أوضاع بلاد عربيّة أو إسلاميّة هي خارج التأريخ

والمنطق أصلًا وتحكمها قبائل أو عوائل أو مستبدّون فاسدون ليس لهم الأنا غير الحاكم وحاشيته والآخر رعية وشعب لا قيمة له ولا صوت ولا كرامة، مع قطع النظر عن هويّاتهم أو ماهيّاتهم وانتماءاتهم.

هذا، والواقع أنّ الغربيّ الأوروبيّ أو الأميركيّ الذي هناك يمثّل الأنا في علاقته مع الآخر المسلم والعربيّ والشرقيّ والإفريقيّ والأسود والمهاجر والدينيّ، ويتعامل بمنتهى العنصريّة والتمييز والجور السياسيّ والقانونيّ؛ قياسًا مع ما يتمتّع به المواطن الغربيّ الأنا! وإذا خرجت من بلادهم ونظرت إلى تعامل الأنا الأوروبيّة والأميركيّة المتغطرسة مع الآخر العربيّ والمسلم أو الأفغانيّ والهنديّ والإفريقيّ في بلادهم في المنظومات الفكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة؛ فإنّك سوف تتأكّد أنْ لا حرمة للآخر؛ لا في دمه ولا في عرضه ولا في أرضه، ولا في قيمه ودينه، ولا في شيء من حياته وكرامته وشرفه؛ لأنّ الأنا الأميركيّ في بلاده مقيّد بشيء من القوانين، ولكنّ كاشف الستر وفاضح السرّ هو حينما يخرج من بلاده إلى بلاد الآخرين! فهو يتصرّف في الناس كما يتصرّف في قطيع من الأنعام. وجرائم الأميركيّين في بلاد العرب والمسلمين وبلاد المشرق والجنوب أوضح دليل على هذه المصيبة.

وفي مستوى أعلى ممّا سبق، نرى: «أنّ الفيلسوف الأميركيّ هنتجتون يؤكّد عمقَ التحدّي الحضاريّ الذي يمثّله الإسلام، حيث وصفه بأنّه أكثر العقائد والديانات صرامة، مع إشارته إلى أنّه في الوقت الذي اختفى فيه الانقسام الأوروبيّ الأيديولوجيّ بين الرأسماليّة والشيوعيّة، فإنّ الانقسام الأوروبـيّ الثقافيّ بين المسيحيّة الكاثولوكيّة والأرثوذوكسيّة من ناحية، وبين المسيحية والإسلام من ناحيةٍ أخرى، عاد للظهور ثانية في تلك القارّة. فالصراع بين الحضارتين الغربيّة والإسلاميّة مستمرّ منذ «13» قرنًا، ولا يبدو أنّه في طريقه إلى التلاشي، ولذلك شواهده عند الحدود الشماليّة للحضارة الإسلاميّة»[1].

(1) محفوظ، محمد: «إشكاليّة الأنا والآخر في الفكر العربي المعاصر»، جريدة الرياض، العدد 14764، 27 ذو القعدة 1429 هـ. ق/25 نوفمبر 2008م، على الرابط الإلكتروني: www.alriyad.com/390350

وهذا يكشف عن أنّ الحرمة التي يلقاها الآخر في بلاد الأنا الأميركي هي ليست عن قناعة أو قيمة أو إرادة؛ وإنّما النظام الصارم والقانون الصلب يفرضه على المواطنين هناك؛ ما يعني أنّ إشكاليّة الأنا والآخر ليست محلولة معالَجةً، كما يُتَوَهّم أحيانًا ويدعو إليه مُبشّرو التغريب في الشرق! كما إنّ الأنظمة التربويّة والسياسيّة والمجتمعيّة المدنيّة في الغرب تفتقر إلى أدنى مستوى من حلول منطقيّة لتحقيق العدالة والمساواة بين الأنا والآخر المختلف في الفكر والانتماء. ولا رغبة لدى كاتب المقالة -هنا- في أن يذكر نماذج هيمنة الأنا الغربيّة على الآخر غير الغربي في اليمن والعراق وسوريا وكلّ مكان والمحاولات الجارية على قدم وساق باتّجاه أمركة العالم؛ أي هيمنة الأنا وثقافتها وفكرها وحضارتها وقيمها على الآخر! لشدّة وضوح الأمر وكثرة المصاديق والشواهد التي يراها الناس يوميًّا على شاشات فضائيّاتهم.

ليست العبرة بكثرة الندوات واللقاءات والمؤتمرات الغربيّة والشرقيّة حول إشكاليّة العلاقة بين الأنا والآخر؛ وإنّما المهمّ هو أن نرصد الوقائع على الأرض في كيفيّة موقعيّة الآخر في الأنظمة الواقعيّة والسياسات المنتهجة والبرامج المتحقّقة المنفّذة في العالم؛ ذلك أنّ حالات الرفض والاشتباك والتحريض على الصدام بين حضارة الأنا وثقافتها وأنظمتها السياسيّة في وجه حضارة الآخر وثقافته وقيمه وأفكاره، هي التي حكمت وسادت في الغرب ضدّ الشرق العربيّ والإسلاميّ وغير الإسلاميّ طيلة القرون الماضية، بدلًا من الدعوة الصادقة إلى الحوار والتفاهم والسلام والوئام والتعايش، على أنّهم لم يبذلوا جهودًا حقيقيّة لتحقيق أنظمة عادلة في التعامل مع المجتمعات والأنظمة والثقافات والحضارات الأخرى؛ وإنّما على نقيض من كلّ هذا نرى أنّ روح الاستعمار السياسيّ والعسكريّ والاستثمار الاقتصاديّ النفعيّ والتضليل الثقافيّ ومنطق الاعتداء والحرب والسلب والنهب هي التي رافقت تأريخ العلاقات الغربيّة والشرقيّة، وعلاقات الغرب مع المسلمين والعرب؛ وهي عهود وحقب خلت نهائيًّا من أيّ محاولات

صادقة للتعامل الإنسانيّ مع الآخر المختلف والحفاظ على حقوقه الأوّليّة.

إنّ موجة عظيمة ضدّ أقدس الرموز الإسلاميّة؛ أي النبي المصطفى ﷺ والقرآن الكريم اكتسحت أوروبا على مرأى ومسمع هؤلاء، من دون أن يحرّكوا ساكنًا بالمعنى الحقيقيّ، ودون أن يفكّروا بالعلاج.

ثالثًا: سنّة التغيير الذاتيّ منطلقًا للتحوّل الغيريّ والاجتماعيّ:

لعلّ ما يمكن تسميته بمرحلة النفس والاهتمام الروحيّ بالإنسان، هي الخطوة المهمّة الموضوعيّة لمالك بن نبي في تحليله لأسباب الانهيار الحضاريّ العربيّ والإسلاميّ. ففي تصوّر مالك أنّ أحداث صفّين وغيرها من التطوّرات اللافتة، التي أدّت إلى تغيير الوجهة الروحيّة للإسلام المتمثّلة بعلي عليه السلام والخلفاء الراشدين باتّجاه الوجهة المادّيّة الحسّيّة الأرضيّة، هي الأساس في الهبوط الحضاريّ الإسلاميّ.

إنّ أهمّيّة قراءة بن نبي تكمن في أنّها تستحضر حقيقة هامّة ترتبط بقضيّة الأنا والآخر أو النفسيّ والغيري؛ لأنّ في اعتقاده أنّ مركزيّة النفس وتهذيبها ووجهتها المعنويّة والروحيّة هي في ما لو انتقلت إلى قضايا أخرى ترتبط بالمادّة والتأريخ والمجتمع؛ حيث ستتولّد حضارة لن تشبه الحضارة التي ترتبط بالدين الإسلاميّ، وشخصيّة حضاريّة لن تشبه الشخصيّة الحضاريّة الإسلاميّة. ولعلّه من الأوائل الذين التفتوا إلى هذه الانعطافة الخطيرة في حركة الأمّة وحضارة المسلمين.

ولهذا اكتشف الشيخ محمد عبده أنّ أساس الإصلاح هو في النفس، وبدا له فيما بعد أن يعيد النظر في طريقة شيخه وأستاذه السيد جمال الدين الذي كان -حسب بعض المفكّرين- يركّز على العلاقة مع الأنظمة ودنيا السياسة، فأحسّ الإمام محمد عبده أنّ النظام التربويّ الذي يبني النفس ويصلح أمر النفس والفرد هو الأساس في المرحلة الأولى[1].

(1) انظر: ابن نبي، وجهة العالم الإسلامي، م.س، ص53.

وحسب فهم مالك بن نبي، فإنّ الشيخ محمد عبده، وكذلك الأستاذ محمد إقبال تبنّيا فكرة إصلاح علم الكلام من خلال فلسفة جديدة لها تمكّنها من تغيير النفس أولًا[1].

ولعلّ من أهمّ المحاور البحثيّة المرتبطة بالتغيير والتطوير في العالم هو منطق الصلة بين الأنا والآخر، وترتيب التعامل مع النفس وغيرها في المسار التغييريّ؛ فردًا ومجتمعًا. هذه العلاقة عميقة ومتجذّرة إلى درجة يمكننا أن نتحدّث عن ارتباط جميع النماذج التغييريّة في العالم المعاصر وفلسفاتها البنيويّة التي تقع خلفها بنوعيّة التواصل بين الإنسان وغيره، وعلاقات ساحات الاتّصال بين الإنسان ونفسه والآخر والله والطبيعة في شبكة رباعيّة معروفة من التواصل عادة يُتحدَّث عنها في الدراسات الاجتماعيّة الإسلاميّة؛ وهي منظومة توحيديّة من الأفكار والقناعات والنظريّات والتوصيات العمليّة التي تشمل البعد النفسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ والثقافيّ في صورة تفاعليّة جامعة.

ومع ذلك، فإنّ السؤال المركزيّ الذي يبقى لدى أغلبيّة الباحثين في قضيّة النهضة والحضارة في العالم الإسلاميّ هو: لماذا تقدّم الغرب وتأخّر المسلمون؟ فعلى الرغم من أنّ اعتبار هذا السؤال منطلقًا صحيحًا والاعتقاد بأنّ له أولويّة منهجيّة في الطرح لمتابعة مشاريع النهضة يعتريه الشكّ؛ لأنّ الواقع المتشابك والمعقّد للمسلمين وتَعَمّقَ المشكلة الحضاريّة واستفحالَ الاستعمار والاحتلال والانحطاط، وتغلغلَ التخلّف في أعماق فكر المسلمين وواقعهم؛ كلّها غيّرت مواقع الخلل وعَمّقَتها أحيانًا، فتعدّدت جبهات المواجهة وأنماط الصراع، وكثرت قراءاتها، فتطلّب الأمر -بالتالي- إعادة صياغة سؤال النهضة أو أسئلة النهضة، غير أنّ العقل العربيّ والإسلاميّ لا يزال يصرّ على أن يعطي أولويّة فكريّة للولوج إلى فكرة التطوّر والحضارة من مدخل السؤال التقليديّ السالف الذِكْر.

(1) انظر: ابن نبي، وجهة العالم الإسلامي، م.س، ص53.

ومن بين الحلول المقدَّمة لعلاج الانحطاط والتخلّف، نجد بعضها يرتكز إلى العناصر الخارجيّة؛ سواء بالإيجاب من خلال الدعوة إلى تبنّي الطروحات النهضويّة الغربيّة مثلًا، أو بالسلب من خلال السعي إلى الدعوة لتطهير المجتمع من الظواهر الخارجيّة، ومنع استيراد الأفكار والأشياء والنظريّات، ولكنّ كلاهما يرتكز إلى بدائل ترتبط بالآخر وإعادة ترتيب العلاقة معه، وليس بالنفس أولًا.

في المقابل، بنى بعض المفكّرين الكبار من العالم الإسلاميّ في القرن الماضي مشاريعهم الإحيائيّة أو التجديديّة النهضويّة على معالجة المشكلة الحضاريّة الإسلاميّة على قواعد النفس ورعايتها؛ منعًا من خضوعها أمام التحدّيات الخارجيّة؛ كالاستعمار على سبيل المثال، وتحصينها وتعزيز قدراتها التي تمنحها قدرة الصمود والمقاومة أمام الهجمات والتهديدات الخارجيّة؛ وقد اقتبسوا هذه المنهجيّة من القرآن الكريم ومركزيّة النفس وأوّلويّة تغييرها قياسًا مع المساعي لتغيير الخارج. فهذا الأستاذ مالك بن نبي يتحدّث عن أوّلويّة تحصين النفس أمام الآخر المستعمر[1]، بل أوّليّته قياسًا مع جميع المحاولات الأخرى في دحر الاستعمار نفسه، ويسمّيه بقابليّة الاستعمار؛ بوصفه مرضًا لو لم يعالجه المسلمون؛ فإنّ الاستعمار سيستمرّ عليهم، وإن تنوّعت أشكاله وتطوّرت صوره.

وعليه، فإنّ الفكرة المركزيّة في نظريّة مالك بن نبي حول ظاهرة الاستعمار ليست الاستعمار نفسه؛ بل القابليّة له، وهي قضيّة تتّصل بالنفس وليس بالآخر؛ قضيّة ذاتيّة وليست غيريّة إذا صحّ التعبير[2].

وعمدة الاحتجاج في هذا المنطق -مضافًا إلى المنهجيّة الظاهرانيّة العقلانيّة الاجتماعيّة التي يتبنّاها في أدبيّاته الحضاريّة- تعود إلى رؤية مالك بن نبي القرآنيّة التي يتبنّاها في جميع مؤلّفاته الضخمة التي تدور حول مشكلات الحضارة؛ حيث تتكرّر آيات معيّنة في سياقات خطابه

(1) انظر: ابن نبي، وجهة العالم الإسلامي، م.س، 54-56.
(2) انظر: بن نبي، مالك: شروط النهضة، م.س، ص155.

الحضاريّ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾[1]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[2]، والتي تؤكّد على نفسيّة الإنسان وضرورة ترقيتها وتهذيبها من كلّ ما يسبّب جلب الاستعمار الخارجيّ، تشكّل العنوان الأوّل الأهمّ من الثلاثيّة الشهيرة في نظر بن نبي؛ أعني الإنسان والتراب والوقت[3].

ويرى مالك بن نبي أنّ الآية القرآنية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ نصّ مبدئيّ للتأريخ الكونيّ (bio– hidstory)؛ وهو ادّعاء لا نقرّره حسب الإيمان فحسب؛ وإنّما ينبغي لنا أن نقوم بتقدير هذا المبدأ في ضوء التأريخ الذي وقع. ففي رؤية بن نبي، فإنّ الإجابة بكلمة نعم لا تجدي؛ إلا إذا تأكّدنا من أمرين أساسين:

- الأوّل: هل المبدأ القرآنيّ سليم في تأثيره التأريخيّ؟
- الثاني: هل يمكن للشعوب الإسلاميّة تطبيق هذا المبدأ في حالتها الراهنة؟[4]

ثمّ يؤكّد بن نبي الأمرين؛ أي إنّه يثبت صحّة المبدأ القرآنيّ؛ بوصفه سنّة إلهيّة ثابتة؛ وذلك عبر التأريخ، من خلال رصد حركة المجتمع الإسلاميّ الأوّل ومركزيّة الروح وتهذيب النفس وتحصينها قبل أيّ شيء آخر، ومن ثمّ يقدّم تبريرًا وبرهانًا على أنّ هذا المبدأ قابل للجريان والتحقّق العابر للزمن ليصل إلى عصرنا الراهن[5].

والحقيقة، كما جاء في الأثر عن النبي ﷺ: «**كما تكونوا يولى عليكم**»[6]، أنّ الإنسان بخصائص نفسه وسمات شخصيّته وطبعه يستجلب النمط السياسيّ والثقافيّ عليه في الحياة. ولعلّ الكواكبيّ يشير

(1) سورة الأنفال، الآية 53.
(2) سورة الرعد، الآية 11.
(3) انظر: الميلاد، زكي: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ط1، دمشق، دار الفكر، 1418هـ. ق/1998م، ص82.
(4) انظر: بن نبي، شروط النهضة، م.س، ص 49.
(5) انظر: م.ن، ص52.
(6) المتّقي الهندي، علي: كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتفسير: بكري حياني، تصحيح وفهرسة: صفوة السقا، لا.ط، بيروت، مؤسّسة الرسالة، 1409هـ.ق/ 1989م، ج6، ح14972، ص89.

إلى هذا المبدأ حينما يقول: «ولو نظر السائل نظرة الحكيم المدقّق لوجد كلّ فرد من أسراء الاستبداد مستبدًّا في نفسه لو قدّر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كلّهم وحتى ربّه الذي خلقه تابعين لرأيه وأمره. فالمستبدّون يتولاهم مستبدّ، والأحرار يتولاهم الأحرار. ما أليق بالأسير في أرض أن يتحوّل عنها إلى حيث يملك حرّيّته، فإنّ الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط»[1].

والرؤية الأنفسيّة ذاتها يحملها الكواكبيّ مع فوارق في الأدبيّات؛ طبعًا حينما يتحدّث عن أنّ أصل الداء هو في الاستبداد؛ وهو ناشئ عن رخوة النفس وضعفها والجهل والتواكل والتهاون، وغيرها من الأمراض التي تصيب النفس. وينصّ الكواكبي في مقدّمة كتابه على ذلك قائلًا: «عسى أن يعرف الذين قضوا نحبهم أنّهم هم المتسبّبون لما حلّ بهم، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار، إنّما يعتبون على الجهل وفقد الهمم والتواكل و...»[2].

ولعلّ الأدبيّات الحضاريّة التي استخدمها الإمام الخميني قدس سره في فقه الرشد والنهضة وأسباب التخلّف وعناصر النهضة وقواعد الصحوة؛ هي من أوضح الأدبيّات القرآنيّة في هذا الجانب، حيث يصرّ على مركزيّة النفس وتهذيبها وإخفاق جميع المحاولات الإعماريّة والنهضويّة؛ لولا ترافقها مع رعاية النفس والتقوى[3]. ويرى قدس سره أنّ الفلسفة الأساسيّة للقرآن الكريم ليست بتشكيل الحكم والنظام؛ وإنّما ببناء الإنسانيّة وتهذيب الذات، وأنّ الحكومة تأتي وسيلة مساعدة لتحقيق ذلك[4].

يمزج الإمام الخميني قدس سره المبادئ العرفانيّة والسياسيّة، فيتحدّث عن اليقظة؛ بوصفها مرحلة مشتركة للصحوة الإنسانيّة والنفسيّة والحضاريّة

(1) الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، لا.ط، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م، ص20.
(2) انظر: م.ن، ص8.
(3) انظر: الخميني، روح الله: الجهاد الأكبر، ترجمة: حسين كوراني، ط4، بيروت، الدار الإسلامية، 1411هـ. ق/1991م، ص41.
(4) انظر: الخميني، روح الله: صحيفة النور، ترجمة: رياض الأخرس، مراجعة: علي كنيان خناري، ط1، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، 1430هـ. ق/2009م، ج14، ص305-311.

السياسيّة معًا. وعليه، فلا يمكن أن نتوقّع الانتصار على الآخر المعتدي، قبل أن ينجح الإنسان في الانتصار على نفسه.

إنّ الجهاد الأكبر وجهاد النفس مقدّم على جهاد الآخر المعتدي. والتغلّب على النفس مقدّمة للتغلّب على الآخر. وبهذا، فإنّ العلاقة بين الذات والآخر في موضوع الجهاد بشقّيه الأكبر والأصغر تتّضح إلى أبعد حدّ.

إنّ الصمود والمقاومة الأسطوريّة التي أظهرها الإمام الخميني قدس سره أمام العواصف العاتية؛ تنبع كلّها من الإيمان ومناعة النفس وتقواها؛ وهذه هي الوصفة القرآنيّة التي سعى الإمام قدس سره ليقدّمها إلى العالم الإسلاميّ للتخلّص من طبائع الاستبداد؛ نفسًا وغيرًا.

إنّ سيادة الأمّة والأنظمة الإسلاميّة وصمودها ومقاومتها أمر غير ممكن؛ إلا أن تكون النفس سيّدة حرّة غير خاضعة لشياطين الإنس والجنّ، وأن تتّصف بالتقوى والإرادة والعزيمة الإنسانيّة أمام الإغراءات والإغـواءات الكثيرة في الحياة. وهكذا، نجد أنّ العلاقة بين الذاتيّة والغيريّة عند الإمام الخميني قدس سره وفكره الحضاريّ والسياسيّ مقتبسة من الأنموذج القرآنيّ في علاقة النفس بالآخر ووحدة المصير بينهما.

إنّ التغيير النفسي مقدّمة واجبة للتغيير الاجتماعيّ، والجهاد ضدّ الذات وشهواتها هو الممهّد لنجاح الجهاد ضدّ العدوّ الخارجيّ، فعندما تصبح النفس عدوًّا شرسًا أمّارة بالسوء يستحيل معها الغلبة على العدوّ الغيريّ الخارجيّ. ومن هنا، استطاع الإمام قدس سره أن يبدع منهاجًا معرفيًّا وعمليًّا يجمع العرفان والعمل السياسيّ، بعدما أصبحت الحركة الصوفيّة تميل إلى العزلة والبعد عن المسؤوليّة الاجتماعيّة، وبعدما ابتعد المسؤولون الاجتماعيّون وأهل السلطة كثيرًا عن الروحانيّة وتهذيب النفس؛ ما سبّب سقوط المنهاجين وانهيار الطهر والزهد في أهل السلطة، وسقوط روح المسؤوليّة الاجتماعية في أهل التصوّف والعرفان. غير أنّهما اجتمعا في شخصيّة الإمام قدس سره وتولّدت من هذا الاندماج حالة توحيديّة رائعة في الفكر والواقع.

إنّ التغيير النفسيّ عميق الأصول والجذور؛ وهو الضامن لاستمراريّة الكفاح وبقاء التغيير وتطوير الأحوال؛ لأنّ التغييرات التي تطرأ على السياسة أو الاقتصاد أو الحقول الحضاريّة المادّيّة قد تزول بين ليلة وضحاها، والذي سوف يستمرّ ويبقى ويقاوم ويحصن هو التغيير النفسيّ وتحوّل الرؤية والتصوّر لدى الإنسان وعمق وعيه وبصيرته. ومن هنا، كان التغيير الأنفسيّ بمنزلة ضمانة الحركة الصاعدة والرشد النوعيّ والكيفيّ للمجتمع. وهذا جزء آخر من الرؤية القرآنيّة في معالجة إشكاليّة العلاقة بين النفس والآخر.

وبناءً على ذلك، فإنّ الخلل في إدارة الذات وفقدان المناعة والمقاومة هي الأسس في تحقيق مشاريع الاستعمار، حيث يتحوّل الاستبداد إلى طبائع المجتمعات أحيانًا -حسب تعبير الكواكبي- وهو مرض يصيب النفس والذات؛ بما يمهّد الطريق أمام الآخر المستعمر الغيريّ ليقوم بغزونا.

ويكمن الحلّ في إعادة معرفة النفس وتحصينها أمام العناصر الغازية وتزويدها بوسائل الصمود والمقاومة.

إنّ مفهوم الأنا والآخر شديد الالتباس في الفكر العربيّ والإسلاميّ الأصيل؛ وهو مصطلح ضبابيّ مبهم إلى حدّ كبير، فلو أعيد فهم مواقعها من جديد وأدرك المسلمون حدود العلاقة بينهما في مصادر الإسلام الأصليّة؛ لاستطاعوا أن يجدّدوا العلاقة مع العالم المعاصر بكلّ أطيافه وأنماطه الفكريّة والحضاريّة بطريقة بنّاءة ومتفاعلة لا يضيع معها شيء من الهويّة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ التغيير النفسيّ غاية في الصعوبة والتعقيد، وبخاصّة لو أتى متأخّرًا في مراحل عمريّة لاحقة، وهي عمليّة لها أبعاد متشابكة وعناصر متداخلة لا تقارن بتغيير وجهة نهر أو تحويل اتّجاه طريق أو تقليب وجهة عامّة لحركة اقتصاديّة أو سياسيّة... ولكنّها معاملة مع النفس التي تكثر مقوّماتها ويصعب تغييرها؛ لتشابك عناصر الوجود الإنسانيّ بعضها مع بعضها الآخر. غير أنّ التغيير النفسيّ بقدر ما هو

صعب ومعقّد؛ بقدر ما سيوفّر فضاءً جديدًا يسهّل التغييرات الحضاريّة والمجتمعيّة بشكل مذهل.

إنّ التأكيد على أولويّة التغيير النفسيّ في القرآن الكريم وأوّليّته وأسبقيّته في الحياة؛ هو لأجل ما سيتركه هذا التغيير الأنفسيّ على مجمل الحياة وجميع أبعادها المجتمعيّة. والمنهج القرآنيّ في تغيير النفس الإنسانيّة ربّانيّ سماويّ ينسجم عقلًا وطبيعةً مع الكائن الإنسانيّ ومقتضياته الوجوديّة والطبيعيّة الفطريّة. ففو تغلغل الإيمان في النفس وتجذّر فيها فستتغيّر وجهة النفس الإنسانيّة حتمًا، وسيتّجه الإنسان المؤمن نحو ما يؤمن به، ومن ثمّ ستتغيّر وجهة الحركة الحضاريّة والاجتماعيّة. وعلى كلّ حال، فإنّ في القرآن مناهج التغيير النفسيّ والاجتماعيّ، فالحضاريّ؛ وهو موضوع يقع خارج محور هذه الدراسة.

ومن الذين اجتهدوا في فهم العلاقة بين النفس وغيرها أو بين الأنا والآخر في التغيير الاجتماعيّ برؤية قرآنيّة: الشهيد السيد محمد باقر الصدر، حيث حاول أن يستفهم المنهجيّة القرآنيّة في هذا الأمر الهامّ. ففي فكر الصدر: «إنّ الإسلام والقرآن الكريم يؤمن بأنّ العمليّتين يجب أن تسير جنبًا إلى جنب، عمليّة صنع الإنسان لمحتواه الداخليّ وبنائه لنفسه ولفكره ولإرادته وطموحاته. هذا البناء الداخليّ يجب أن يسير جنبًا إلى جنب مع البناء الخارجيّ ومع الأبنية العلويّة لها. ولا يمكن أن نفرض انفكاكَ البناء الخارجيّ عن البناء الداخليّ؛ إلاّ إذا بقي البناء الخارجيّ بناءً مهزوزًا متداعيًا. ولهذا، سمّى الإسلامُ عمليّة بناء المحتوى الداخليّ إذا اتّجهت اتّجاهًا صالحًا: «الجهاد الأكبر»، وسمّى عمليّة البناء الخارجيّ إذا اتّجهت اتّجاهًا صالحًا عمليّة «الجهاد الأصغر»، واعتبر أنّ الجهاد الأصغر إذا فُصِل عن الجهاد الأكبر فقد محتواه ومضمونه وقدرته على التغيير الحقيقيّ في الساحة التاريخيّة والاجتماعيّة»[1].

(1) الصدر، محمد باقر: المجموعة الكاملة لمؤلّفات السيد محمد باقر الصدر، إعادة صياغة عبارات وترتيب أفكار: محمد جعفر شمس الدين، لا.ط، بيروت، دار التعارف، 1409هـ.ق/1989م، ج13 (السنن التاريخيّة في القرآن)، ص 138-139.

رابعًا: حدود النفس وغيرها والأنا والآخر في القرآن الكريم:

إنّ الكلمات والصيغ التي تشير إلى مفهوم الأنا في القرآن الكريم بكلّ حدودها الدلاليّة وإطارها المعنويّ؛ هي كثيرة جدًّا تشمل أبعادًا متنوّعة من دلالات المفردة. وقد يفهم الإنسان من بعضها -قبل التدبّر والتعمّق- معنى التقوقع والالتفات إلى النفس وتجاهل الآخر. قال الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[1]، فمن معطيات الآية ورسائلها أنّ الإنسان قد يقع في الفهم الخاطئ لو لم يتعمّق في هذه الطائفة من الآيات التي تحثّ الإنسان على إعطاء الأولويّة لنفسه؛ ولكنّ الحقيقة هي أنّ الإنسان -لأسباب كثيرة بعضها حسنة تنبع عن قصد صالح- قد يُبتلى بنسيان النفس وتجاهل الذات، ويركّز في جميع حركاته ونشاطاته على الاهتمام بالآخر؛ وقد يكون هذا خلقيًّا أو اجتماعيًّا أو سعيًا للهداية. فهذا الهمّ البليغ قد يُنسيه نفسَه، فيستغرق في تقويم الآخرين والعمل على دعمهم، فيشتغل باله عليهم أكثر من نفسه، وهذه حالة سلبيّة تؤدّي إلى أن يغرق الإنسان في مصيبة نسيان الذات. وسلبيّات هذه الحالة لا تقلّ عن مضاعفات إهمال الناس والآخرين.

كما تركّز الآية القرآنيّة على مركزيّة إصلاح النفس وتهذيبها وتزكيتها والانطلاق منها نحو الآخر. وعليه؛ فإنّ المسؤوليّة الإنسانيّة العامّة تجاه الآخرين -أيضًا- تأتي ضمن المنظومة الشرعيّة والعقليّة والأخلاقيّة الشاملة لترشيد النفس. فالأصالة ليست للآخر؛ وإنّما للنفس، ومن منطلق النفس يكون للآخر موقعيّة هامّة في صلاح النفس. ولعلّ الآيات التي تذمّ رعاية الآخرين وتجاهل الذات تشير إلى هذا الأمر؛ منها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2]، ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ

(1) سورة المائدة، الآية 105.
(2) سورة الصف، الآيتان 2-3.

ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[1]؛ وهي آيات بيّنات تحذّر الإنسان من أن يدعو إلى ما لا يلتزم به، وينشر من الدين والأخلاق ما هو غير متعهّد به، ويقول ما هو تاركه؛ لأنّ هذه السمات قريبة من معالم الشخصيّة المنافقة، أو تمهّد لها، فيصبح الإنسان مستعدًّا في شخصيّته ليفصل بين عمله هو وعمل الآخرين في الأمر الواحد، فيظهر بأقواله وسلوكه للناس ما ليس مأتمرًا به أو متناهيًا عنه. كما إنّ رواج هذه الصفة في المجتمع يسبّب ضعف الخطاب التربويّ الذي هو رهن التزام المربّي والمعلّم والإمام بما يسعى إلى تحقيقه بين الناس. فإنْ شاهد الناس أئمّتهم وعلماءهم غير ملتزمين بما يقولون وغير عاملين بما يأمرون الناس به -من برّ وتقوى- فإنّ التأثير النفسيّ لمنطقهم وللدين عمومًا سيسقط. وعليه، فتأكيد القرآن الكريم على البدء بالنفس وعدم تقديم السعي إلى هداية الآخرين ودعوتهم إلى الحقّ أمر غاية في الأهمّيّة منهجيًّا للتربية وللدعوة وللإصلاح الاجتماعيّ عمومًا. فمصير الآخر في هذه الآيات متّصل بمصير الأنا والنفس؛ إنْ صلحت سيصلح، وإنْ فسدت سيفسد، ولصلاحيّة النفس دور مركزيّ قاعديّ أساسيّ لإصلاح الآخر.

وطائفة أخرى من الآيات توسّع دلالة الأنا والنفس لتشمل الآخر القريب؛ انتماءً أو نسبًا أو إنسانيةً، وفي أطر علاقيّة أخرى يمكن فهم أطيافها من هذه الآيات، والنفس والأنا مع كلٍّ من هذه المستويات من العلاقة لها رسالة وعليها واجبات ومهام؛ كآية المباهلة التي سبق أن تحدّثنا عنها باختصار في اعتبار الإمام علي عليه السلام من نفس الرسول صلى الله عليه وآله. وكذلك الآيات التالية كلّها تغيّر الإطار الوجوديّ للنفس والآخر، ولا يمكن تفسيرها باعتبار الأنا فيها والنفس المقصود منها هي الدالّة على الشخص. وإلا، كيف يُسلّم الإنسان على نفسه في الآية: ﴿ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ

(1) سورة البقرة، الآية 44.

تَحِيَّةَ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[1]؟ أو كيف يسفك الإنسانُ دمَ نفسه أو يُخرج الإنسانُ نفسَه من دياره وموطنه في الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾[2]؟ أو كيف يقتل الإنسان نفسَه وهل القصد هنا الانتحار ومقتل الأنا؟ واضح أنّ المعنى حسب الشواهد: أن يُدمّر الأنا نفسها: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3]. من هنا؛ ينبغي أن نبحث في دلالة الآية في كلمة النفس عن تخوم دلاليّة معنويّة جديدة.

كما إنّ مفهوم الخيانة للنفس -هنا- لن يتحقّق؛ إلا في نطاق التصرّف مع الآخر وإعمال الخيانة في حقوق الآخرين. فهل يخون الإنسان نفسَه؛ إلا أن تتفاعل الأنا مع الآخر بطريقة معيّنة، حيث يَصدر من النفس ما ينعكس عليها في آخر المطاف بالشرّ والبلاء والسوء؟ ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[4]، ولا يخفى أنّ النفس والأنفس من المفردات المفتاحيّة في العلاقات الزوجيّة، وكذلك في خلق الإنسان. والإشارة -هنا- إلى الخيانة بالمعنى الذي سينعكس على واقع الحياة والعلاقات برمّتها؛ سواء

(1) سورة النور، الآية 61.
(2) سورة البقرة، الآيتان -84 85.
(3) سورة البقرة، الآية 54.
(4) سورة البقرة، الآية 187.

صدرت من نفس الرجل أو من نفس المرأة؛ لأنّ النتيجة واحدة أو شاملة؛ ستشمل تبعاتها الطرفين. ولعلّ تعبير القرآن الكريم في أنهنّ ﴿ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ فيه من الإشارات الواضحة على التشارك النفسيّ الوجوديّ بينهما؛ لأنّ الأنفس التي ستخلق وتتلاحق في بيتهما، وكذلك في الذرّيّة على المدى البعيد، هي منهما ومزيج من نفسيهما، وهكذا الأنفس البشريّة كلّها تتفاعل وتتواصل وجودًا؛ ويترتّب على تواصلها خيرًا وشرًّا.

ومن الآيات في هذا السياق -أيضًا- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾[1]؛ إذ هي ليست بصدد منع الانتحار وقتل النفس، خاصّة إذا نظرنا إلى الآية الثانية التي تربط قتل النفس بالظلم والعدوان وسياق السورة والآية عمومًا. وهذا ما دفع المفسّرين الكبار إلى التأكيد على أنّ القصد من الوحي -هنا- منع الناس من أن يقتل بعضهم بعضًا. ويقول الطبري في تفسير الآية: «**يعني -جلّ ثناؤه- بذلك: ولا يقتل بعضكم بعضًا، وأنتم أهل ملّة واحدة، ودعوة واحدة، ودين واحد. فجعل -جلّ ثناؤه- أهل الإسلام كلّهم بعضهم من بعض. وجعل القاتل منهم قتيلًا في قتله إيّاه منهم بمنزلة قتله نفسه، إذ كان القاتل والمقتول أهل يد واحدة على من خالف ملّتهما**»[2].

وكذلك غيرها من الآيات؛ منها: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ ﴾، ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾؛ وهي شواهد قويّة على أنّ القصد من أنفسكم هو أعمّ من المعنى اللغويّ المألوف؛ وإنّما الدائرة الدلاليّة القرآنيّة لهذه الآيات تتّسع وتضيق حسب المفهوم المقصود والمراد، وحسب السياق والنظام المعنويّ لكلّ سياق.

(1) سورة النساء، الآيتان 29 - 30.

(2) الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير القرآن، ط4، بيروت، دار المعرفة، 1400هـ.ق/1980م، مجلد 4، ج5، ص23.

وعمومًا، إنّ أغلب الآيات التي أتت على ذِكْر كلمة أنفسكم بالجمع؛ توحي إلى الحالة الاجتماعيّة أو الحالة السلبيّة التي تلحق بالأنا والنفس، ولكنّ التبعات ستتجاوز الشخص إلى أن تمسّ الشخصيّة الاجتماعيّة والحضاريّة للناس، والمؤكّد هو أنّ الإطار الدلاليّ للنفس -هنا- أوسع من الحالة الفرديّة، وأنّ الأنا -هنا- ممتزجة منصهرة متفاعلة بقوّة مع الآخرين أو مع الأنا الأوسع والأشمل التي تقترب من مفهوم الأمّة أو نفسيّة الأمّة وشخصيّتها. ولعلّ من هذه الآيات: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1]، ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾[2]، ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾[3]، ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[4]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[5]، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾[6].

ولكنّ المهمّ هو أنْ نفهم الإطار الدلاليّ للأنا، فلم نقصد منذ البداية أن نحصر الأنا في الدلالة على الشخص؛ وإنّما القصد منها -أحيانًا- هو ما يتجاوز الشخص إلى الشخصيّة وما ينتمي إليه الإنسان من ثقافة وقيم ومدرسة فكريّة ومنظومة حقائق يشترك فيها مع آخرين. فعندما يقول النبي الأكرم ﷺ في ابنه الحسين سيّد شباب أهل الجنّة عليه السلام: «**حسين منّي وأنا من حسين**»[7]؛ نشهد الشراكة الوجوديّة النفسيّة بطريقة مذهلة؛ لأنّ النفس النبويّة الشريفة ارتبطت بالحسين عليه السلام وما جرى

(1) سورة البقرة، الآية 44.
(2) سورة البقرة، الآية 54.
(3) سورة البقرة، الآية 87.
(4) سورة التوبة، الآية 36.
(5) سورة يونس، الآية 23.
(6) سورة يوسف، الآية 18.
(7) ابن قولويه، جعفر بن محمد: كامل الزيارات، تحقيق: جواد القيموي، ط1، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين؛ مؤسّسة نشر الفقاهة، 1417هـ.ق، باب14، ح11، ص116؛ ابن حنبل، أحمد: مسند أحمد، لا.ط، بيروت، دار صادر، لا.ت، ج4، ص172.

على يديه فيما بعد، فضمن سلامة الرسالة الإسلاميّة التي هي الحقيقة المحمديّة بحسب التعبير العرفانيّ، والحسين عليه السلام هو الضامن لبقاء هذه الحقيقة.

كما إنّ التأمّل في بعض الآيات القرآنيّة؛ كآية المباهلة التي تنصّ على وحدة النفس والشخصيّة بين النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام من بعض الجهات باتّفاق المفسّرين الكبار من المذاهب جميعًا: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1].

قال الشيخ ابن تيمية في منهاجه؛ تأكيدًا لشأن نزول الآية، وأنّ عليًا عليه السلام هو المقصود من كلمة ﴿ وَأَنفُسَنَا ﴾: «**أمّا أخذه عليًا وفاطمة والحسن والحسين في المباهلة، فحديث صحيح رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص، قال في حديث طويل: لَمَّا نَزَلَتْ هَذه الْآيَةُ ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ...﴾ دَعَا رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاء أَهْلِي**»[2].

وهناك مستوى آخر من الدلالة للنفس يأتي في حالة معيّنة، ينبغي أن تقدّم الأنا غيرَها على نفسها؛ كما تشير الآية الكريمة إلى أنّ: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾[3]؛ فتفضيل الآخر النبي صلى الله عليه وآله على النفس، وإعطاء الأولويّة له؛ له في عمقه دلالة مدهشة لفهم الأنا الحقيقيّة التي تنطوي على الولاء للنبيّ صلى الله عليه وآله؛ بل تكتمل هذه الأنا وتتعاظم وجوديًّا وتتّسع قيمةً بالانصهار والذوبان في النبي صلى الله عليه وآله.

(1) سورة آل عمران، الآية 61.
(2) الحرّانيّ، أحمد (ابن تيمية): منهاج السنة النبويّة، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط1، لا.م، لا.ن، 1406هـ.ق/1986م، ج7، ص123.
(3) سورة الأحزاب، الآية 6.

إنّ للنبوّة -هنا- دلالةً معنويّة، وإضافة وجوديّة إلى الأنا التي تتعالى؛ قياسًا مع الأنا الفاقدة للتواصل الروحيّ والولائيّ مع النبيﷺ في الدرجة العليا، ومع الأئمّة والأولياء، ومع العباد الصالحين، ومع المؤمنين العاديّين، فلكلّ من هذه الطبقات والمستويات ولاء واجب، ومع كلّ منهم تتّسع دائرة الأنا أو تضيق دلالةً ومفهومًا ووجودًا، ومعها فإنّ التأثيرات الاجتماعية -أيضًا- ستتعاظم وتكبر؛ لأنّ الأنا المتفانية مع الولاية النبويّة أو ولاية أولياء الله الطاهرين والنفس المتفاعلة وجودًا معهم ستكون ذات تأثير أعمق وأدوم في الآخر الفرد أو الآخر المجتمع أو الآخر الانتماء.

هذا مبدأ تفاعل الأنفس، وجودًا وماهيةً، وهي مسألة غاية في الأهمّيّة؛ لأنّ الولاء والموالاة لأيّ شخص أو جهة ستسبّب الصيرورة الوجوديّة والقيميّة للنفس الموالية والوليّة، كما إنّ التبعات العميقة لهذه الولاية على الصعيد الاجتماعيّ -بل الحضاريّ- ستتعمّق وتكبر. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

إنّ آيات الولاء والولاية والوليّ والموالاة كلّها تأتي ضمن هذا الإطار؛ أي إنّ الإنسان النفس والأنا تتّسع رؤيته وتكبر قدرته على الحركة الاجتماعيّة وتقوى مظاهر وجوده وحضوره في الساحة الحضاريّة؛ بقدر ما تنفتح الأنا فيه على المستويات الأرقى من النفس؛ وهي نفوس الملائكة والأنبياء والأوصياء والأئمّة الصدّيقين والمؤمنين من عباد الله؛ حتّى تتطوّر الولاية هذه لتمتزج بولاية الله ولقائه؛ وهي لحظة تكبر فيها النفس إلى حيث لا يمكن للإنسان أن يعي العمق والحقيقة والجوهر. ومن مثل هذا الإطار الدلاليّ الأوسع للنفس وللأنا تتولّد الشخصيّة الحقوقيّة والاجتماعيّة والحضاريّة للأمّة. وهنا مجال ملائم جدًّا للتنظير في مفهوم الشخصيّة الحقوقيّة الاجتماعيّة الحضاريّة لمفردة الأمّة والمجتمع؛ لتشمل مفاهيم وأطر أخرى؛ كالشعب والقوم والدولة.

(1) سورة المائدة، الآية 51.

وفي نقيض من مفهوم الولاء والموالاة الذي يوسّع من نطاق دلالة النفس إلى شمولها للأمّة والشعب والمجتمع والقوم، يأتي إطار مفهوم العدوّ والمعاداة والتعدّي والاعتداء؛ وهي كلمات مناقضة للولاء والموالاة من جهة أنّها تشكّل عناصر مواجهة الأنا والنفس، سواء أتت من الداخل؛ وهي حالة المنافقين الذين يلبسون غطاء النفس والأنا ولكنّهم أعداؤها، أو أتت من الخارج؛ لأنّ مفهوم العدوّ والاعتداء والمعاداة في جميعها يأتي من أصل الاختراق والعبور والتجاوز وغيرها؛ ما يوحي بالتفكيك والتجزئة والإفساد.

إنّ موالاة الأعداء كالولاء للأمراض الفتّاكة والجراثيم القاتلة وجلبها إلى داخل النفس والبدن. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1]؛ فاتّخاذ أعداء الله وأعداء المؤمنين وإظهار المودّة والمحبّة لهم من بعد ما ارتكبوه من جرائم كبرى في حقّ الله والإنسانيّة والمسلمين عبر اعتداءاتهم وخروجهم على الرسول ﷺ وإخراجه وإخراج المؤمنين من بيوتهم وأوطانهم كلّ ذلك لو حصل؛ أي لو تولّى المؤمنون هؤلاء المعتدين الآثمين الأعداء؛ فإنّ ذلك سيتسبّب في تفكّك المجتمع الإيمانيّ وتدمير الأنا والنفس الإسلاميّة وخراب العلاقات الاجتماعيّة؛ لأنّ المودّة هذه ستحدث شرخًا وتمزيقًا في داخل الصف الإسلاميّ، وتعزّز موقعيّة ظاهرة المنافقين في عمق المجتمع، العمق الذي يُعدّ المجال الحيويّ الاستراتيجيّ للنفس الإسلاميّة المشتركة.

(1) سورة الممتحنة، الآية 1.

خاتمة:

إنّ القرآن الكريم الّذي تجلّى فيه الله تعالى بكلامه لخلقه[1] هو المصدر المعرفيّ الكونيّ الأوّل والأكمل والأتمّ الذي يعالج جميع القضايا في إطار تكوينيّ وتشريعيّ شامل، ومنهاجه منهاج عقلانيّ يتوسّله الإنسان للإبحار في مفاهيمه ومضامينه وأنظمته العلميّة والعمليّة. ويشكّل التوحيد في الرؤية القرآنيّة الحلقة الأساس في ربط أجزاء الكون بعضها ببعضها الآخر وفهمها في سياق كلّيّانيّ وجوديّ؛ حيث تضعه هذه الخاصّيّة القرآنية المنهاجيّة في صدارة قائمة المصادر المعرفيّة لفهم الوجود والكون والإنسان في ضوء التوحيد الإلهيّ.

من جهة أخرى، فإنّنا نشهد أنّ الفلسفات الاجتماعيّة والمدارس الفكريّة السياسيّة، وكذلك المنظومات العالميّة المعاصرة في العلاقات الاجتماعيّة التي تعتبر أساس الأنظمة القائمة في العالم؛ هي جميعها ترتبط بنوعيّة تفسيرها للأنا والآخر أو للذات (النفس) وغيرها. وعليه، فجميع القضايا المعاصرة والإشكاليّات التي تواجهها المشاريع النهضويّة أو الطروحات الحضاريّة لها صلة بترتيب هذه العلاقة.

ولعلّ الخلط والتخبّط الحاصل بين الأنا والآخر في نطاق الأمّة أو ضمن مشروع الفكر الإسلاميّ في عصر الحركات التكفيريّة والتوجّهات المتشدّدة هو أمر واضح لا يحتاج إلى الإثبات وله الكارثيّة نفسها على صعيد النتائج القائمة والأوضاع الحاكمة في الأمّة من جرّاء هذا الخبط العظيم واشتباك المفاهيم ونتائجه المدمّرة في جميع متعلّقات الأمّة؛ حيث نشعر بضرورة العمل الجادّ لتوضيح الأمور وتفسير المأزق الكبير وبذل الجهود الجماعيّة في كلّ الصعد للخروج منه.

إنّ مكانة القرآن الكريم هي مكانة شامخة لا يمكن لأحد أن يتنصّل

(1) روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه، ولكنّهم لا يُبصرون**» (الأحسائي، ابن أبي جمهور: عوالي اللئالي، تحقيق: مجتبى عراقي، ط1، قم المقدّسة، مطبعة سيد الشهداء عليه السلام، 1405هـ.ق/1985م، ج4، ص116).

منها أو يسقط حجّيّتها في جميع الأزمنة والأدوار وفي جميع المذاهب والمدارس الفكريّة والفقهيّة والعقديّة عمومًا. وليس هذا لأنّ ثمّة روايات أو نقولٌ دينيّة في فضيلة القرآن أو تلاوته؛ وإنّما السبب الواقعيّ في مرجعيّة القرآن الكريم يعود إلى خصائص هذا النصّ وقيمته المعرفيّة وكماله وشموله من حيث البيان والمعاني والنظريّات الفلسفيّة الوجوديّة والعقائد الحضاريّة الواقعيّة في الحياة. وعليه، ففتح النقاشات وإنجاز الأبحاث والدراسات القرآنيّة لمعالجة القضايا العويصة والمعضلات القائمة أمر مطلوب وعقلانيّ. ومقولة الأنا والآخر أو الذات وغيرها هي من المقولات المهمّة التي اعتنى بها القرآن الكريم؛ لأنّ الأساس التربويّ القرآنيّ مبني على النفس (نوع من الأنا أو الذات)، ومن ثمّ ينتشر في الآخرين خيرًا أو شرًّا. والنفس في المفهوم القرآنيّ -أيضًا- تتجاوز الحدود الشخصيّة أو حدود الأنا إذا صحّ التعبير، ولكنّنا نستطيع أن نقوم بإعادة تحديد مفهوم الأنا في ضوء القرآن، ونوسّع الإطارَ الدّلالي له في ظلّ الآيات القرآنيّة؛ لأجل تحديد منطقة مشتركة للأنا مع الآخر، والتأكيد على أنّ الأنا قرآنيًّا لا يُتخيّل إلا بشراكة مع الآخر، وأنّ الآخر -أيضًا- يستحيل تصوّره وبناؤه بدون الأنا.

وتجدر الإشارة إلى إشكاليّتين رئيستين ترتبطان بتعقيدات فهم الأنا والآخر وتحدّيات هذا الأمر، أوّلهما هو الأنا الطاغية والمستعمرة في الغرب؛ وثانيهما هو الأنا التكفيريّة والمنتحرة للمسلمين، والتي تمثّلت في الحركات التكفيريّة التي تواصل مسارها في تدمير الأنا والذات بطريقة منهجيّة. ويبدو أنّ الأخيرة مستَثْمَرة في لعبة الأنا الغربيّة بطريقة ذكيّة طبعًا.